حياة شوقي بقلمه

كتب المغفور له شوقي بك حياته بقلمه الى أن قطع العقد الثالث من عمره وقد نُشرتْ في الطبعة الاولى من « الشوقيات »

سمعتُ أبي رحمه الله يرد أصلنا الى الاكراد فالعرب ويقول إن والده قدم هذه الديار يافعاً يحمل وَصاة من احمد باشا الجزار إلى والى مصر محمد على باشا ، وكان جدى وأنا حامل اسمه ولقبه يحسن كتابة العربية والتركية خطاً وانشاء فادخله الوالى فى معيته ثم تداولت الأيام وتعاقب الولاة الفخام وهو يتقلد المراتب العالية ويتقلب فى المناصب السامية إلى أن اقامه سعيدباشا أميناً للجمارك المصرية . فكانت وفاته فى هذا العمل عن ثروة راضية بددها أبى فى سكرة الشباب ثم عاش بعمله غير نادم ولا محروم، وعشت فى ظله وانا واحده اسمع بما كان من سعة رزقه ولا أرانى فى ضيق حتى أندب تلك السعة فكأنه رأى كما رأى لنفسه من قبل أن لا أقتات من فضلات الموتى .

ثم ذكر طرفاً من سيرة جده لوالدته ، إلى أن قال عن نفسه :

أنا إذن عربى ، تركى ، يونانى ، جركسى ، بجدتى لابى : أصول أربعة فى فرع مجتمعة تكفله لها مصر كما كفلت أبويه من قبل . الى أن يقول :

أمّا ولادتى فكانت بمصر القاهرة وأنا أحبو اليوم الى الثلاثين. حدثنى سيد ندماء هذا العصر المرحوم الشيخ على الليثى قال : لقيت أباك وأنت حمل لم يوضع بعد فقصَّ علىَّ حلماً رآه فى نومه فقلت له وأنا أمازحه : « ليولدنَّ لك ولد يخرق كما تقول العامة خرقاً فى الاسلام » .

ثم اتفق أنى عدت الشيخ فى مرض الموت وكانت فى يده نسخة من جريدة الاهرام فابتدر خطابى يقول : هذا تأويل رؤيا أبيك يا شوقى ، فوالله ما قالها قبل فى الاسلام أحد ! قلت: وما تلك يامولاى؟ قال: قصيدتك فى وصف «البال» التى تقول فى مطلعها :

حفٌّ كأسَها الحبَبُ فهى فضةٌ ذهَبُ

وها هى فى يدى اقرأها ! فاستعذت بالله وقلت : الحمد لله الذى جعل هذه هى « الخرق » ولم يضر بى الاسلام فتيلاً .

أخذتنى جدتى لأمى من المهد وهى التى أرثيها فى هذه المجموعة وكانت منعمة موسرة فكفلتنى لوالدى وكانت تحنو علىّ فوق حنوها وترى لى مخايل فى البر مرجوة. حدثتنى أنها دخلت بى على الخديو اسماعيل وأنا فى الثالثة من عمرى وكان بصرى لا ينزل عن السماء من اختلال أعصابه ، فطلب الخديو بدرة من الذهب ثم نثرها على البساط عند قدميه فوقعتُ على الذهب أشتغل بجمعه واللعب به فقال لجدتى : إصنعى معه مثل هذا فانه لا يلبث أن يعتاد النظر الى الارض! قالت: هذا دواء لا يخرج إلا من صيدليتك يامولاى ! قال: جيئى إلىّ به متى شئت إنى آخر من ينثر الذهب فى مصر ! ولا يزال هذا الارتجاج العصبى فى الابصار يعاودنى، وكان المرحوم الشيخ على الليثى كلما التقت عينه بعينى ينشد هذا المصراع للمتنبى :

(محاجرُ مسكٍ ركّبتْ فوق زئبقِ)

ثم عرض لنشأته الدراسية فذكر أنه دخل مكتب الشيخ صالح فى الرابعة من عمره ، وأخيراً التحق بمدرسة الحقوق فوجد ممانعة من ناظرها بسبب صغر سنه ، ومكث بها سنتين ثم دخل قسم الترجمة وتخرج منه بعد سنتين .

قال : وبينما أنا أتردد على المغفور له على باشا مبارك فى شأنٍ ورد عليه مرسوم من المعية بطلبى اليها فكان سروره بذلك أضعاف سرورى بالنعمة المفاجئة فذهبت الى السراى وهنالك استؤذن لى على المرحوم الخديو توفيق باشا . فلما مثلت بين يديه ولم أكن رأيته من قبل ولكن مدحته مراراً وأنا فى المدرسة خاطبنى بهذا اللفظ الشريف : « قرأت يا شوقى فى الجريدة الرسمية أنك أعطيت الشهادة النهائية وكنت أنتظر ذلك لألحقك بمعيتى، لكن ليس بها الآن محل خال، فهل لك فى الانتظار ريثما يهىء الله لك الخير » . فاستلمت أذيال العزيز وقبلتها ثم قلت: حسبى يا مولاى أنك قد ذكرتنى من تلقاء نفسك الشريفة، وأى خير يهىء الله لعبدك أفضل من هذا ؟ فأطرق هنيهة وقال: قد سمعت أن أباك عطل من الخدمة فأبلغه اننى ربما أدخلته فى عمل قبلك. ثم تهلل وأذن لى فى الانصراف .

لبثت فى المعية بضعة شهور انتظر فرجاً يأتى به الله. وكان المرحوم على باشا مبارك لم يقطع عنى الراتب إلى أن كان يوم كثر غيمه وتثاقل مطره فخرجت قبيل الأصيل

شوقى بك فى صباه

فى حاجة لى على حمار أبيض كان لوالدى وبينما أنا عائد الى منزلى أجتاز ميدان عابدين بصرت بالعزيز فى بهو السراى يشرف منه ، فنزلت عن الدابة أمشى كرامة للمليك المطلّ وأمرت الخادم أن يبتعد بها وأن يلاقينى خلف القصر ثم مشيت على الاقدام حتى إذا انتهيت من الميدان اعترضنى رسول من الأمير يدعونى اليه فوافيت حضرته وانا لا أعرف السبب ، وكان معه ساعتئذ المرحوم عبد الرحمن باشا رشدى فتحلى الحليم بصورة الغضب وقال : أليس لى أن أطل من بيتى حتى نزلت عن حمارك وألجأتنى إلى الاثناء ؟ قلت: عفواً يامولاى اهكذا أدبنا الأوائل حيث يقول شاعرهم:

وإذا المطىُّ بنا بلغنَ محمداً فظهورهنَّ على الرجالِ حرامُ

فتبسم ضاحكاً ثم قال : انكم معشر الشعراء تتفاءلون بالغيوم وهذا اليوم من أيامكم فاسمع للباشافان عنده لك فألاً ، فالتفت الباشا عندئذ إليّ وقال: الآن أمرني أفندينا أن أبلغك تعيين أبيك مفتشاً فى الخاصة الخديوية ، وأما أنت فتعين بعد شهر. ثم مد العزيز إلى يده فقبّلتها واجماً ، قد غلب علىّ السرور حتى أنساني الشعر وكان ذلك وقته !

ثم عرض الفقيد لأول عهده فى وظيفته بالمعية السنية وكيف أراد له الخديو توفيق أن يدرس فى أوربا الآداب الفرنسية والحقوق وكان ينقد ستة عشر جنيهاً نصفها من الخاصة ونصفها من المعية وأعطاه يوم سفره مائة جنيه بعث بنصفها إلى مدير الارسالية ليهيء له جميع ما يحتاج اليه ، ووصف ركوبه البحر لأول مرة إلى مارسيليا على أن يقضى عامين فى مدينة « مونبليه » وعامين فى « باريس » . ولما انقضت السنة الأولى التمس من الخديو توفيق أن يأذن له فى الحضور إلى مصر فأبى عليه أمنيته وأوصاه أن يبقى أربع سنوات كاملة فى أوربا ، وأرسل اليه خمسين جنيها لينفقها فى رحلة يختارها إلى أى بلد سوى مصر ، فتقبل دعوة رفاقه الفرنسيين إلى مدنهم المتفرقة فى الجنوب وقضى فيها شهرين ، ووصف ما رأى فى هذه الاقاليم الفرنسية من كرم ضيافة ، إلى أن يقول وصفاً للفلاح الفرنسى :

وعرفت الفلاح الفرنسى فى داره وكنت ألقاه فى مزرعته وأماشيه فى الاسواق فيخيل لى انه قد خلف العرب على قرى الضيف واكرام الجار ، وكان اعجب ما رأيت مدينة « كركسون » : وجدتها قسمين وألفيت القوم عليها صنفين فمنهم الباقون الى اليوم كما كان آباؤهم عليه فى القرون الوسطى ، بناؤهم ذلك البناء ولباسهم ذلك اللباس وعاداتهم وأخلاقهم تلك العادات والأخلاق .

وبعد انتهائه من السنة الثانية سافر فى صحبة الطلاب المصريين ومدير الارسالية الى انجلترا على نفقة الخديو توفيق ومكث فى انجلترا شهراً ، ولم يلبث هو واخوانه أن سئموها . وفى السنة الثالثة أصيب بمرض شديد كان فيه بين الحياة والموت وأشار عليه الاطباء أن يقضى أياماً تحت سماء أفريقية فوقع اختياره على الجزائر وكان دليله اليها أحد القضاة الفرنسيين الموظفين بها ، إلى أن يقول :

أما جوّ الجزائر فلا يعدله بين الجواء فى صحوه وطيب نسمته مع توقد شمسه الا جنوب فرنسا ، ولم أتأثر فيها كتأثري من رؤية المصريين فى القهاوى البلدية إذ

أكثر أصحابها وغلمانها منهم ، إلى أن قال : ولا عيب فى الجزائر سوى أنها قد مُسختْ مسخاً ، فقد عهدت مساح الاحذية فيها يستنكف من النطق بالعربية ، وإذا خاطبته بها لم يجبك إلا بالفرنسية !

شوقى بك فى شبابه

وبعد أن أقام الفقيد فى الجزائر أربعين يوماً عاد إلى باريس وحصل على الشهاد النهائية. ورأى الخديو عباس أن يبقى ستة أشهر أخرى وعاد الى مصر بعد ذلك . وفى سنه ١٨٩٦م. انتدب لينوب عن مصر فى مؤتمر المستشرقين الذى عقد فى جنيف بسويسرا فأقام بها شهراً ثم رحل الى بلجيكا وزار المعرض الذى أقيم فى مدينة « أنفرس » ثم أصيب برمد فى عينيه فسافر الى الاستانه ومكث بها أربعين يوماً .

ويروى كيف سمى ديوانه «الشوقيات» فيذكر صلته وهو يطلب العلم فى باريس بالامير شكيب ارسلان وقد تمنى عليه أن يرى مجموعة شعره وأن يسميها «الشوقيات»، الى أن يقول :

كانت وفاة والدى من نحو ثلاث سنوات فكان لى عجبا أن وجدتُ بين أوراقه شيئاً كثيراً لى من مشتّت منظومى ومنثورى ما نُشر منهما وما لم يُنشر ، قد كتب بعضه بالحبر والبعض الآخر بالرصاص ، والكل بخط يد المرحوم وقد لفه فى ورقة كتبتْ عليها هذه العبارة : «هذا ما تيسر لى جمعه من أقوال ولدى احمد وهو يطلب العلم فى أوربا فكنت كأنى أراه وإنى آمره أن يجمعه ثم ينشره للناس لانه لا يجد بعدى من يعتنى بشؤونه وربما لم يوجد بعده من يعنى بالشعر والآداب» . فبينما أنا ذات يوم تعبثُ بهذه الأوراق حيران لوصية الوالد كيف أجريها زارنى صديقى مصطفى بك رفعت فحدثته حديثى فسألنى أن أعيره الاوراق أياماً ثم يعيدها الىّ ففعلت ثم لم يمض شهر حتى بعث بها إلىّ وإذا هى قد نُسِختْ بقلم سليم يؤيده ذوق صحيح بحيث لم يبق إلا أن تدفع الى الطابع فاخذتها وبودى لو وفيتُ صديقى المشار اليه حقه من شكر الصنع وأنا أقول فى نفسى لئن صدق أبى فى الاولى لقد ظلم فى الثانية فان الخير لايزال فى الناس .

ثم أورد كيف أسقط من شعره ما لا يحب نشره ووعد بنشر قصائده فى أجزاء متتالية .

***

إلى هنا انتهى ما كتبه الفقيد بقلمه عن حياته وكان قد بلغ فى ذلك الوقت ، وهو ما انقضى عليه أكثر من ثلاثين عاماً ، قمة الشهرة فكان يدعى « أمير الشعراء » فى مصر وغيرها من أقطار العالم العربى ، وما زال الزمن يمضى به ومجده فى امارته يزداد تألقاً ، فان السنين التى قضاها شوقى بعد ذلك كانت حافلة بالعظائم إذ قضى حوالى خمسة عشر عاماً ينشر عيون القصائد فى شتى الأغراض السياسية والاجتماعية وتلقى قصائده من الجمهور فى مصر وغيرها الاعجاب والتقدير . ثم وقعت الحربُ العظمى وتغير وجهُ الحالة السياسية فى مصر وكان حظه من هذا التغيير أن نُفى الى الخارج وقضى من حياته فى المنفى نحو خمسة أعوام لم ينس فيها وطنه وأهله فخلد له ولهم وللتاريخ العربى اثارة من شعره لا تمحى على ذكر الدهور . فلما وضعت الحرب أوزارها عاد شوقى فيمن عادوا الى الوطن ونحا منذ هذا الحين بالشعر والأدب منحى جديداً غير ما كان ماضياً فيه بنفس الهمة والشغف الذى كان يحسه فى صباه وشبيبته ، وما زال يعمل لهما حتى اللحظة الاخيرة من حياته .